الغربية وغير الغربية جميعا منذ انهيار الليبرالية واستخدام العنف عشوائيا قد جعلت وجود هذه الظروف « المفضية الى النقاش العقلاني » نادرة حقا . اما الثوريون من طراز فرانز فانون فيذهبون الى أن هذه الظروف لم توجد ابدا ، ولذا فان العنف هو وسيلة العمل الوحيدة في متناول الضعفاء المضطهدين المستغلين ليحرروا انفسهم ويحدثوا تغيرا خلاقا حقا في المجتمع قائما على كرامة الانسان وقيمة الشخص الانساني، بغض النظر عن العرق او اللون . ويقدم لنا جان بول سارتر في مقدمته لكتاب فانون «معذبو الارض»(٣٣) نظرة نفاذة في طبيعة العنف الخلاقة التي تقف خلف تحليل فانون للثورة الافريقية ضد الاستعمار . يتوجب علينا هنا ان نؤكد نقاطا ثلاث . اولها ان عنف فانون رد فعل على عنف أسبق هو العنف الذي استخدمه المستوطنون ضد السكان الاصليين . ولذا فان استخدام المستعمرين للعنف لانهاء عنف اكثر تدميرا امر مبرر . والعنف الذي يستخدمه المستعمرون يتوخى نزع انسانية المواطنين ، ولا يستطيع المواطنون ان « يصبحوا بشرا »(٣٤) الا من خلال العنف « ذلك الغضب المجنون »(٣٥). ويضيف سارتر مؤكدا « ان العنف اللاقمعي... هو الانسان يعيد خلق ذاته »(٣٦). وخلال هذا العمل الخلاق تبدأ عملية شفاء جديدة « فالعنف كسيف اخيل يشفي حيث يجرح »(٣٧).

ثانية النقاط التي يجب تأكيدها هي ان فانون ينظر الى عنفه من خلال عملية خلاقة لا يمكن أن تتقدم بالعمل اللاعنفي . فـ« قهر الاستعمار عملية عنفية دائما»(٣٨) على مستويين : تدمير الاستعمار ، تلك الظاهرة التي ولدت وابقي عليها بالعنف ، وخلق المجتمع الجديد المتحرر من الاستعمار حيث الانسان سيد نفسه . لذا فان العنف في هذا المضمار هو « وحي الجماهير المستعمرة ان تحريرها يجب ان ينجز بالقوة ولا يمكن ان ينجز الا بها»(٣٩).

النقطة الثالثة التي يجب تذكرها هي ان عنف فانون قيمي ، ذلك انه يتركز على اعادة خلق الانسان . انه ليس غاية بحد ذاته ، ولا يشاد به لذاته . العنف هو الوسيلة التي يغسل بها المواطن الاصلي الذي جعله المستعمر وضيعا بالعنف والقوة ، هذه الوصمة اللاانسانية ، ويعيد بناء علاقة صحيحة قائمة على انسانية الانسان . ويعلن فانون في كتابه «بشرة سوداء واقنعة بيض» أن « **العرقي هو الذي يخلق (الانسان) الاحط منه** » وهذه العرقية هي ما يتوجب على المواطن ان يمحوه بالقوة .

في المضمار الفلسطيني الذي لا يختلف عن المضمارين الاميركي والافريقي ، ينظر الفدائيون الى العنف على انه الوسيلة الفعالة للتحرير . وسنركز على هذا العنف في الفصل القادم .

المقاومة الفلسطينية : مدخل تحليلي

ان المقاومة الفلسطينية كنضال ثوري وحركة تحرر وطني وحركة عصابات هي عملية عنفية . والكفاح المسلح هو المبدأ الهادي لحرب التحرير الفلسطينية الراهنة . ان « اعتماد الكفاح المسلح ... مبدأ استراتيجي اساسي يوجب اقصاء اية تسوية سياسية »(٤٠).

تقدم حركة المقاومة الفلسطينية حالة نموذجية لدراسة العنف كظاهرة في المجال السياسي . وعلى الرغم من تعقيد هذه الحركة الا انها يمكن ان تستخدم لاختبار صحة الفرضيات الاساسية التي يقدمها المنظرون المختلفون والتي عرضت في الجزء الاول من هذه الدراسة : ان العنف يندلع عندما تضعف السلطة الشرعية ، وانه مهما كان التغيير الذي يأمل الثوريون في احداثه باستخدام العنف فلا يمكن لهذا التغيير الا أن يكون سلبيا . يمكن ان تكون موضوعة البروفسورة اريندت قابلة للتطبيق على حركة المقاومة الفلسطينية من وجهة اخرى : أن التلقائية المدمرة المتضمنة في العنف لا تترك مجالا للبرمجة الطويلة الامد ، التي هي شرط مسبق للتغيير المتوازن . وتقول البروفسورة اريندت ، لتوضيح ذلك ، ان افتقار حركة اليسار الجديد [في اميركا] في الستينات لبرنامج حيوي طويل الامد هو نقطة الضعف الحاسمة في هذه الحركة ، وهذا النقص هو الذي يجعل الحركة غير فعالة كحركة سياسية جديرة بالثقة . لا تنطبق كل النتائج التي توصلت اليها البروفسورة اريندت بالضرورة على الكفاح الثوري الفلسطيني. بيد ان بامكاننا ان نفترض دون ان نجانب الصواب أن العنف الفلسطيني قد برز بشكل صارخ في المناطق التي تآكلت فيها السلطة الشرعية (الاردن ولبنان) . وليست علاقة التناسب العكسي بين العنف والسلطة علاقة تبادلية كلية على الاطلاق ، مما لا يمكننا من أن نأخذ فرضية اريندت ابعد من ذلك ، فحتى يكون منظور العنف/السلطة صحيحا